المناهج العربية القديمة وطبيعة نشأتها

بحث أعده سالم علوي
أستاذ في معهد اللغة العربية وآدابها
جامعة الجزائر

وقدمه إلى الندوة المنعقدة بجامعة تلمسان بتاريخ 24-25-26 ماي 1993

مدخل :

لا أحد يستطيع أن يحدد لنا متى ظهر الأدب العربي في بداياته الأولية التي تساعدنا على رسم خط بياني للمنحنيات التي سلكها في تطوره، طبق سنة النشوء والإرتقاء، بيد أننا نجد أنفسنا أمام تراث شعري متكامل في أعاريضه وأوزانه وقوافيه، كما نجد أنفسنا أيضا أمام أمثال وحكم ووصايا وخطب لا يمكن أن تنشأ هكذا كاملة، محكمة البناء، صائبة الرأي بغتة دون أن تكون قد مرت بمراحل التعثر والبداءة.

تعرف هذه الفترة بالأدب الجاهلي، وقدرت بحوالي قرنين من الزمن، وكتب فيها ما كتب، وقيل عنها ما قيل، من منكر لهذه الفترة إلي مثبت لها، ومَرَدُّ الأمر كله الى افتقارنا الى شواهد مسجلة ومدونة في دواوين، وأحسن ما قيل في هذا الشأن ما جاء منسوبا الى عمر بن الخطاب: " كان الشعر علم قوم، لم يكن لهم علم أصح منه"(1) فلئن صحت هذه المقولة بهذا اللفظ، لفظ العلم مضافا الى القوم، ومسندا إليهم، فإننا نستطيع أن نحكم بأن القوم لم يكونوا كما يوصفون بالجهل والجاهلية، وإنما كانوا يملكون مناهج ثابتة مشاعة بين القوم، ناهيك عما نسب اليهم من أسواق يتحاكمون فيها، ويرضون بالحكم الذي يحكم بينهم فيما يقولون، ولا شك أن الحكم ينطلق من معطيات متواترة بين الحكام، تم التواطئ عليها مسبقا، وإلا فكيف يرضى الخصمان بحكم الحكم، ومن هذا المنطلق قال ابن سلام :

"وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون واليه يصيرون(2)".

إذن فابن سلام يضيف لنا معلومة هامة، وهي أن هذا الشعر كان مدونا ومقيدا في ديوان، عنه يصدرون، واليه يوردون، هذه المعلومة تعزز ما كان افتراضا في مقولة عمر بن الخطاب.

ولئن كان العرب لم يتركوا لنا كتابا مدونا معلوما، لا يتطرق اليه الريب، فإن الذي ثبت لهم أنهم يملكون سليقة وجبلة ترسخت فيهم بدليل أن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، ولو لم يكن في متناولهم لما تحداهم، ولما أبدوا عجزهم، ولما قالوا :" إن له لحلاوة وعليه طلاوة"(3) ويشهد على هذا جميع الذين ألفوا في إعجاز القرآن، أنهم يملكون من الزاد الفكري ما يؤهلهم للتصدي له، فهذا ابن جني يعزو للعرب كل فضيلة، وأنهم كانوا في منتهى النضج والإدراك، وإنما دخل الشك في معارفهم" لأنهم ليست أهم أصول يراجعونها ولا قوانين يعتصمون بها وإنما تهجم بهم طباعهم على ماينطقون به(4)".

إن هذه الطباع مكنتهم من اكتساب مناهج ومقاييس خاصة، منها ما يخص الشعر، ومنها ما يخص الحكم والوصايا والأمثال ومنها ما يخص الخطابة، لذا نسبوا الخطابة الى قس بن ساعدة، والحكمة الى لقمان، والبلاغة الى سحبان، والشعر الى الأعشى إذا طرب والنابغة الى رغب، وامرؤ القيس اذا ركب.

ولما نزل القرآن بطريقة غير مألوفة لديهم أبدوا رأيهم فيه وقالوا: «والأحسن أن يكون الكلام مفصلا مقسوما على أبوابه، وأن يكون لكل نوع حيز وقبيل لا يدخل في قبيل غيره.

قالوا: ولو كانت سور القرآن على هذا الترتيب، فتكون أخبار الأمم وأقاصيصهم في سورة، والمواعظ والأمثال في سورة، والأحكام في أخرى لكان ذلك أحسن في الترتيب وأعون على الحفظ وأدل على المراد(5)".

تقودنا هذه النظرات وليست النظريات الى أن العرب كانوا يعتمدون مقاييس ومناهج في تأليف الكلام، اكتسبوها بحكم التجربة من معارفهم الطبيعية التي تأصلت فيهم،.بيد أن هذه المناهج ضاعت في ركام ماضاع من تراثهم لعدم شيوع التأليف والتدوين، وصدق يونس بن حبيب فيما رواه عن أبي عمرو بن العلاء في قوله: " ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير(6)".

وخلاصة القول إن هذه المناهج كانت بعيدة عن التأثر والتأثير بالغريب الدخيل، بل نابعة من السليقة العربية الصافية، المستمدة من جبليتهم الفكرية والاجتماعية، وبيئتهم الطبيعية، ومستقرأة من تجاربهم في القول.

أثر القرآن وتأثيره

أحدث القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين انفجارا خطيراً في الحياة العربية، ومس كل جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية والأخلاقية، فأنشأ مجتمعا مؤتلفا من أجناس مختلفة، أكرمهم عند الله أتقاهم، لا يستوي في هذا المجتمع الذين يعلمون والذين لايعلمون وأقام للعلم مكانة، وللداوة والقلم فضلا، فاشتغل العرب بهذا القول، فتأثروا بطرقه ومنهجه في بناء السور القصار والطوال فلم يفلحوا، ويمكننا أن نحصر بعض مميزات القرآن في النقاط التالية:

أولا: مخالفة القرآن لفني الشعر والنثر :

عرف العرب أقسام الكلام شعره ونثره، فجاء القرآن مخالفا لهذين الفنيين، فلا هو بالشعر ولا بالنثر لأنه خارج عن الوصفين «و"ليس يسمى مرسلا مطلقا ولا مسجعا، بل تفصيل آيات ينتهي الى مقاطع، يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية[7] ».

وهو موزع على سور، والسور تحتوي على آيات، ويحتوي القرآن ستين حزبا، والحزب مقسم الى ثمانية أثمان، والأثمان الثمانية منقسمة الى نصفين، والنصفان الى أربعة أرباع.

يتم هذا في ترتيب بديع من القصص والمواعظ والدعوة الى توحيد الاله، والحمد والنداء والتهويل والتضخيم والقسم، شغلهم هذا النظام عن فني الشعر والنشر، فراحوا على نهجه يسيرون ويفسرون، لأنه لأول مرة عرف العرب أثرا مزبورا مكتوبا.

ثانيا: الرفع من قيمة العلم:

جاء القرآن يحث على القراءة والكتابة، تعززت هذه الدعوة بفعل الرسول مع أسرى بدر، وفي اتخاذه كُتَابًا له يكتبون القرآن، ويراسلون الملوك والقياصرة، وبذلك أصبحت للكتابة قيمة بعد أن كان العرب يعتمدون الحفظ والرواية مرجعا لهم.

ثالثا: الدعوة الى الرحلة:

كانت دعوةُ القرآن الناسَ الى أن يسيروا في الأرض لينظروا آثار الأمم التي سبقتهم، وحضارتهم ومعالمهم، وما شيدوا وما عمروا صرخةً مدويةً مزقت الحجب التي تحجب العالم عنهم ومن هنا خرجوا فرادى وجماعات ليطلعوا على الأمم الأخرى استجابة لقوله تعالى :" أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض، وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رُسُلُهم بالبينات، فما كان ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون(8)".

وطبيعي أن يتأثروا بما شاهدوا وما رأوا ويؤثرون في غيرهم بفضل القرآن وما أتى به.-

رابعا : ازدهار حركتي الخطابة والشعر

شجع الرسول صلى الله عليه وسلم حركة الخطابة والشعر، واعتمد شعراء يذودون عن الإسلام.

كل هذه العوامل توقفت بتوقف الوحي بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم، فما على العرب إلا أن يعودوا الى أنفسهم، ليشبعوا غرائزهم ويخففوا من آلامهم، فوجدوا في القرآن غايتهم المنشودة، منه يستمدون وعلى نهجه يسعون، وتنامت الحياة، واختلطت الثقافات، ومازج العرب غير العرب، من الذين دخلوا في حظيرة الإسلام، وكان لا بد أن تنشأ ثلاثة مناهج:

1) منهج محافظ

2) منهج معتدل

3) منهج متطرف

المنهج المحافظ

تكاد تكون هذه القسمة هي سنة الحياة، ترتكز عليها الحضارات الإنسانية في أصل نشأتها في مختلف العصور والدهور، فبعد أن توطدت أرضية الحضارة العربية، وتلاقت مع الحضارات التي سادت وبادت، ها هنا أخذ مبدأ التفاعل بين الحضارات يشتد، وقانون البقاء للأصلح يشتط.

فانطلق الفريق الأصيل يؤسس مناهجه، على المرتكزات التي نهجها القرآن والآنفة الذكر والتي تضرب بجذورها في ينابيع الأصالة العربية المتمثلة في الشعر العربي القديم، وما قيل في صدر الإسلام فألف ابن سلام الجمحي(*) كتابه القيم والخالد " «طبقات فحول الشعراء»، وهو أقدم كتاب في النقد وصلنا تحت هذا العنوان وبمنهج مضبوط قال عنه:

- "فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا، فألفنا ما تشابه شعره منهم الى نُظَرائه فوجدناهم أربع طبقات : أربعة رهط كل طبقة متكافئين معتدلين[9] » ولم يتوقف هنا بل استطرد قائلا :" ثم أنّا اقتصرنا -بعد النظر والفحص والرواية عمن مضى من أهل العلم- الى رهط أربعةٍ، اجتمعوا أنهم أشعر العرب طبقة، ثم اختلفوا فيهم بعد، وسنسوق اختلافهم واتفاقهم، ونسمي الأربعة، ونذكر الحجة لكل واحد منهم- وليس تبدئتنا أحدهم في الكتاب نحكم له ولا بد من مبتدأ - ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى[10]".

طبق ابن سلام هذا المنهج البسيط الذي يعتمد الطبقات أبوابا، والحجة والبرهان دليلا، والفحص والنظر والرواية حكما، فهو ينطلق من نفسه دون الرجوع الى الأحكام الجاهزة فيقول:" وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان[11] ".

- فالحواس هي المعتمد والمرجع الأساسي، وهو تأثر واضح بالقرآن الكريم الذي جاء فيه : " ألهم أرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا، أم لَهُمْ أيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ قل أدعوا شركاءكُم ثم كَيدونَ فلا تنظرون[12]

وقد طبق منهجه في كتابه القيم، واقتصر على الشعراء الجاهلين والمخضرمين والإسلاميين، ولم يتعرض لشعراء عصره، ولا للحركة التي أحدثوها استخفافا بهم وإهمالا لهم، وهذا دليل على أنه من أنصار القديم، على عكس ما نجده عند خلفه ابن قتية في كتابه "الشعر والشعراء".

(*) توفي ابن سلام الجمحي مابين 231/232هـ

فقد كان أوسع فكرا، وأفقه علما بالشعر ففجر قضية الصراع بين القديم والحديث في إطاره العربي السليم وفضله على الوافد الدخيل، وهاجم المناطقة في مقدمة كتابه" أدب الكاتب وما ذلك في رأينا إلا لعامل الزمن(*) وطرق قضايا نقدية، ظلت معتمد النقاد كالطبع والتكلف، وبناء القصيدة العربية، واللفظ والمعنى ورد معاني الكلام الى أربعة أضرب هي :

1) ضرب حسن لفظه، وجاد معناه

2) ضرب حسن لفظه وجلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة

3) وضرب منه جاد معناه، وقصرت ألفاظه عنه

4) وضرب تأخر لفظه وتأخر معناه

وأحسن ما قال :

"فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه وأنه رأى قائله.

ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا، مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره"[13].

وقد يخيل لبعض النقاد أن الرجل متأثر بالمناهج الدخيلة لكن الحجج التالية تمنعنا أن نسلكه في زمرة المتأثرين بالمناهج الدخيلة:

1) منها أن هذه القضايا التي طرقها مسبوق اليها، فقديما قسمت العرب الشعراء الى فحول وعبيد، ومطبوعين ومتكلفين.

2) ومنها عامل الزمن وتمازج الثقافات، لا شك أن الفكر ينمو ويتطور.

3) ومنها أن موقفه من طغيان المنطق في عصره وتصديه للمغرمين به لا يدع مجالا لأصالته، ولا بأس أن نثبت موقفه هنا من علم المنطق والمناطقة والمتأثرين به، حيث يقول:

(*) توفي أبو مسلم بن قتية في حدود 276.

" ولو أن هذا المعجب بنفسه، الزاري على الإسلام برأيه نظر من وجهة النظر لأحياه الله بنور الهدى وثلج اليقين ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب، وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها، فنصب لذلك وعاداه، وانحرف عنه الى علم قد سلمه ولأمثاله المسلمون، وقل فيه المتناظرون، له ترجمة تروق بلا معنى، واسم يهول بلا جسم، فإذا سمع الغمر والحدث الغر قوله: الكون والفساد ، وسمع الكيان، والأسماء المفردة، والكيفية، والكمية، والزمان والدليل، والأخبار المؤلفة، راعه ما سمع، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل وانما هو الجوهر يقوم بنفسه، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تنقسم، والكلام أربعة: أمر، وخبر ، واستخبار، ورغبة، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب، وهي : الأمر والاستخبار والرغبة. وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر، والآن حد الزمانين، مع هذيان كثير، الى أن يقول: "..........
ولو أن مؤلف المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو.. لعد نفسه من البكم أو يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب"(14)

إن هذا النص غني عن كل تعليق بأن صاحبه ينسب الحكمة وفصل الخطاب الى العرب ويتبرأ من كل دخيل.

4) ومن الأدلة التي تثبت أصالة هذا الرجل أن كتاب" الشعر والشعراء" حذا صاحبه حذو كتاب طبقات فحول الشعراء غير أنه مزج بين شعراء العرب القدامى والمحدثين على أساس الاستحسان والإستقباح معتملا فكره ومقياسه الخاص فقال:

"ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، والى المتأخر منهم بعين الإحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه(15)"

فالتطور في الفكر واضح " من هذه الفقرة بين رجلين يسيران في منهج واحد، إلا أن أحدهما أرحب صدرا، وأوسع فكرا، وأجمع لعلوم عصره، وأقدر على الحجاج والجدل من الآخر، فابن سلام ينطلق من خلفية تنحو نحو منهج أكثر التصاقا بالقديم، وإهدارا لكل محدث بديع، وابن قتيبة قاض في أحكامه ، لأنه ينظر بعين العدل لا بمقياس النقد والتمحيص والنظر والتجربة.

5) ومن الأدلة التي تجعلنا نضعهما معا في طليعة الذين سنوا المناهج العربية، أنهما قصرا كتابيهما في فن الشعر دون الفنون الأخرى، وأصبحا محجة يحتذى حذوها في كتب الطبقات والموازنات والوساطات، ونما هذا الفن واعتمد مرجعا لكل من ألف في فن الشعر الذي يكاد يكون هو الفن الوحيد عند العرب.

بقي أن يستثني ابن قتيبة الفقيه والمحدث والمتكلم والخطيب فهذا ميدان آخر، برع فيه ابن قتيبة، وانما أخذنا ابن قتيبة الفنان الأديب الناقد من زاوية رؤيته للشعر والشعراء ومنهجه في التأليف، أما موقفه من المعتزلة، ومحاماته عن أهل السنة، فقد عده أحمد أمين نظر الجاحظ عند المعتزلة.

وهذا الموقف من ابن قتيبة دليل على الجدل الدائر حول الأدب وعلى الصراع بين القديم والحديث، والأصيل والدخيل، وهو صراع تجاوز الأدباء والنقاد الى الفقهاء والأمراء كما سنرى مع ابن المعتز في كتابه "البديع" ومن هذا المنطلق بدأ يتشكل موضوع الأدب، وهو الأخذ من كل شيء بطرف، فالأديب الحق هو الذي يستوعب علوم عصره، ويحيط بكل معارفه، لما بين هذه المعارف من التداخل والتكامل.

ومجمل القول في هذا الإتجاه أنه هو الذي سيطعم بمناهج متطورة، مستمدة من العلوم الوافدة على العرب ليتشكل منهجا عربيا يباين المناهج البدائية العربية، والمناهج الدخيلة المتطورة، وبذلك تصبح المناهج العربية مميزة بخصائصها الفنية وطابعها العربي الإسلامي، وهذا ما سنراه في الإتجاه المعتدل.

II- الاتجاه المعتدل:

- في هذا الاتجاه نلتقي مع مناهج قديمة جديدة، وبتعبير آخر أصيلة ودخيلة، أصالتها أنها تنطلق من الأسس الثابتة المتمثلة في القرآن الكريم وكلام العرب، ودخيلة لما تحتويه من متغيرات في المناهج والعناوين، والبناء التأليفي.

فالمناهج تتمثل في المقدمات التي تتصدر الكتب وتتعرض لأهم القضايا النقدية واللغوية، ومناهج الدراسة والتأليف، ومن هنا أخذت العلوم العربية يُباينُ بعضها بعضا في طريقة التأليف فعلوم البلاغة تنطلق من كتاب "البديع" لابن المعتز وكتب الأدب تنطلق من "البيان والتبيين" للجاحظ و"الكامل للمبرد وغيرهما.، وكتب النقد من الموازنة " للآمدي وهكذا تباعا.

والعناوين متجددة مبتكرة فالبديع والبيان والكامل كلها ألقاب غير معهودة في التراث العربي، بيد أنها كلها مستنبطة من القرآن الكريم، فالبيان مقتبس من قوله تعالى "الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان[16]" والبديع من قوله تعالى :" قل ما كنت بدعا من الرسل[17]" والكامل من قوله تعالى:" اليوم أكملت لكم دينكم[18]" يقال كمل الشيء يكمل فهو كامل، كل هذه المؤلفات متكاملة، وانما تتفاوت في طريقة العرض، وكيفية التناول، وفضلنا أن ندلل على هذا المنهج بمؤلفين هما :" البديع" لابن المعتز لما يمتاز به من ابتكار في التأليف وطريقة التبويب و"عيار الشعر" لابن طباطبا لنفس الغرض، لنلمس التمازج بين الأصالة والحداثة في المناهج ومدى تأثرهما بمن سبقهما من غير العرب و تأثيرهما فيمن أتى بعدهما من العرب.

عبد الله ابن المعتز وكتاب البديع: بدأ تأليفه بمقدمة مقتضبة تعرض فيها لهذا الميتدع الذي شغل بال الأدباء والنقاد والمفكرين، وذوي الاهتمام بالثقافة العربية، وانقسموا حوله شيعا ومذاهب، فمنهم من يرى أنها بدعة مبتدعة يجب نبذها، لأنها خرجت عن المسار المتعارف عند أساطين الفكر العربي، ومنهم من غالى فيه، واشتط وخرج عن عمود الشعر، لكن ابن المعتز بمنهجه المبتدع بين لهم أن هذا البديع ليس جديدا مبتدعا بل أصيلا يضرب بجذور أصالته في أعماق البعد التاريخي للسان العربي لوجوده في القرآن وفي كلام العرب، وكلام الصحابة والأعراب، ومن اقتفى أثرهم، وحذا حذوهم، وأن كل ما حدث هو الغلو فيه، والولع به وأنه ما دخل الشطط أمرا إلا أفسده، وما دخله الاعتدال إلا زانه.

ابن المعتز لم يعلن موقفه من القديم صراحة، وأنه من أنصار المحدثين، يظهر هذا الإنتصار في مؤلفه الرائد:" طبقات الشعراء المحدثين" وفي عمله في كتاب البديع الذي بناه على الترتيب التالي :

1) ـ مقدمة جمعت فأوعت منهجه الذي التزمه فقرة فقرة إلاّ عندما يعوزه المثل فقال :

" قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه، وسلم وكلام الصحابة، والأعراب وغيرهم ، وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون "البديع" ليعلم أن بشار ومسلما وأبا نواس ومن قبلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن.

ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه .

ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه، وتفرع فيه، وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك، وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط، وثمرة الإسراف.

وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائدٌ من غير أن يوجد فيهما بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم، إذا أتى نادرا، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل[19]".

سار ابن المعتز على هدى هذا التصميم خطوة خطوة، مبتدئا بالقرآن ومنتهيا بالمحدثين.

ويحسن بنا قبل أن نتطرق الى الأبواب التي رسمها ابن المعتز، أن نسجل ملاحظة قيمنة بالوقوف أمامها لما لها من أهمية، ومؤادها أنه لا يرد على القدماء فحسب، وإنما يرفض المحدثين الذين يزعمون أنهم ابتدعوا هذا الفن، وأنهم لم يسبقوا اليه، وأنهم حازوا فضل الابتكار، وقصب السبق، بل أساؤوا الى مذهب أصيل بولوعهم بهذا المبتدع.

وقد يفهم من هذه اللفتة أنه من أنصار القديم، بيد أنها لفتة الفنان البارع في رد الخصم، بأن هذا البديع قديم متجدد في آن واحد، وأن أصحابه لم يخرجوا عن المنهج العربي التليد، بل هم الأصلاء لتطورهم مع الزمن، فهو موقف ذو وجهين :

1) وجه فيه رد على المتزمتين الذين لا يرون جميلا إلا في القديم، لأنه قديم.

2) ووجه فيه ردع للمدعين الابتداع والريادة والاختراع.

وعلى هذا الأساس بوب عبد الله بن المعتز كتابه في خمسة أبواب هي :

- الباب الأول في الإستعارة.

- الباب الثاني في التجنيس

- الباب الثالث في المطابقة

- الباب الرابع في رد أعجاز الكلام على ما تقدمها.

- الباب الخامس في المذهب الكلامي.

ولما وصل الى الباب الخامس لم يجد له نظيرا في القرآن وهو "ينسب الى التكلف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا[20]".

ـ وعزا هذه التسمية الى الجاحظ، وهنا يصدق قولنا على هذا المنهج أنه مزج بين المناهج العربية وغير العربية.

أدرك ابن المعتز أن هذه الأبواب ليست هي كل كلام العرب ولذا تدارك هذا النقص بقوله :" قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا، وكأني بالمعاند المغرم بالإعتراض على الفضائل قد قال إن البديع أكثر من هذا، أو قال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها فيقل من يحكم عليه، لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء، ونقاد المتأدبين، فأما العلماء باللغة والشعر فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو.

وما جمع فنون البديع ولا سبقني اليه أحد، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين، وأول من نسخه مني علي بن هارون بن يحيى بن منصور المنجم.

ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر، ومحاسنهما كثيرة. لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضهما عن علمه وذكره، وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام، ولا ضيق في المعرفة.

فمن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا الى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره[21]".

هذا هو المنهج الجديد الذي كان ابن المعتز سباقا اليه وسيتعاقب نموه شيئا فشيئا الى أن يكتمل فيما يعرف الآن بعلوم البلاغة، ويصبح "البديع" قسما ثالثا بعد علم البيان وعلم المعاني، لكن ابن المعتز يضيف ثلاثة عشر بابا لينهيه (أي البديع) الى ثمانية عشر بابا وهي:

- باب الالتفات
- باب الاعتراض
- رجوع ردّ الأعجاز على الصدور
- حسن الخروج من معنى الى معنى
- تأكيد المدح بما يشبه الذم
- تجاهل العارف
- الهزل الذي يراد به الجد
- حسن التضمين
- الكناية
- الإفراط
- حسن التشبيه
- التكلف والتعنت
- حسن الابتداء

والآن يحق لنا أن نقول أن المنهج العربي الصرف قد اكتملت أسسه، واشتدت مقوماته الذاتية التي هي امتداد طبيعي للروح العربية الأصيلة المتجددة والمتفاعلة مع الصراع الزمني.

أما صنوه ابن طباطبا(*) صاحب كتاب:" عيار الشعر" فإن مؤلفه سلك فيه مسلكا جديدا لم يتبع فيه مناهج أصحاب الطبقات ولا منهج ابن المعتز ولا طريقة المناهج الطارئة على الفكر العربي الأصيل.

وهوالذي جعلنا نزج به في الطبقة المخضرمة التي مزجت بين الأصالة والتأثر بالوافد ما نجده في عمله التأليفي، في طليعة هذه الأعمال عنوان الكتاب" عيار الشعر" فالعنوان مبتكر مثله مثل ابن المعتز، ثانيا بناؤه للمؤلف، فلم يتبع طريقة

(*) توفي قدامة بن جعفر حوالي سنة 337 هـ

التبويب كما لمسنا ذلك عند ابن المعتز ولا طريقة الفصول كما سنرى عند قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" بل وزع الكتاب في عناوين تذكرنا بالمقالات النقدية والأدبية في عصرنا هذا وهي :

- الشعر وأدواته
- صناعة الشعر
- الألفاظ والمعاني
- المثل الأخلاقية عند العرب
- عيار الشعر
- ضروب التشبيهات
- الابتداءات
- الاختصار
- الأشعار المحكمة وأضدادها
- سنن العرب وتقاليدها
- الأبيات المتفاوتة النسج
- الأبيات التي أغرق قائلوها في معانيها
- المعاني المشتركة أو السرقات

هذه أهم القضايا التي جمعها في مؤلفه، وهي قضايا سبق أن رأيناها بيد أنه يستشهد في بعض الأحيان بما قال الفلاسفة فقال :" وقال بعض الفلاسفة : إن للنفس كلمات روحانية من جنس ذاتها[22]" إن هذا الموقف ليس من خصائص التآليف العربية، ويدفعنا الى الاعتقاد بأن صاحبنا اتصل بالفلسفة الإغريقية وحذق شيئا من علومها، أما تعريفه للشعر لإنه لا يختلف عمن سبقه فهو يقول :" وعيار الشعر أن يورد على الفهم الثاقب، فما قبله واصطفاه فهو وافٍ، وما مجه ونفاه فهو ناقص، والعلة في قبول الفهم الناقد للشعر الحسن، الذي يرد عليه، ونفيه للقبيح منه، واهتزازه لما يقبله،

وتكَرُّهَهُ لما ينفيه، إن كل حاسة من حواس البدن انما تتقبَّلُ ما يتَّصل بها مما طُبعت له إن كان وروده عليها ورودا لطيفا باعتدال لاجور فيه، وبموافقة لا مضادة معها فالعين تألف المرأى الحسن، وتقذى بالمرأى القبيح الكريه، والأنف يقبل المشم الطيب ويتأذى بالمنتن الخبيث، والفم يلتذ بالمذاق الحلو ويَمُجُّ البشع المر، والأذن تتشوف للصوت الخفيض الساكن وتتأذى بالجهير الهائل، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم وتتأذى بالخشن المؤذي والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق، والجائز المعروف المألوف، ويتشوف اليه ويتجلى له، ويستوحش من الكلام الجائر والخطأ الباطل والمحال المجهول المنكر وينفر منه[23]".

نلمس في هذا المقطع من كتاب" عيار الشعر" اتساعا في الفكر، وعمقا في الرؤية التي عرفناها مع ابن سلام الذي يرى نفس الرؤية من أن الشعر صناعة كغيرها من الصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن الى آخر ما قال، إلا أننا هنا نجد فكرا متطورا ناميا، متفقها في علوم عصره، فلئن كانت الفكرة واحدة فإن طريقة العرض مختلفة.

إن هذا التوجه المازج بين تيارين : تيار أصيل، وآخر دخيل هو الذي سيسود الحضارة العربية الإسلامية، ويطبعها بطابعه المتميز.

وفي هذا الإطار تندرج مؤلفات الجاحظ والمبرد وابن قتيبة مع تفاوت في درجات التأثر والتأثير، وسيقتفي أثرهم من يأتي بعدهم وستنحصر المناهج العربية بين منهاجين لا ثالث لهما:

مناهج متطورة متميزة عن البدائية وعن التغريب، ومناهج متأثرة بالدخيل، وتتمثل هذه بصفة خاصة في المؤلفات الفلسفية، كما هو الشأن مع الفارابي في "المدينة الفاضلة".

IIIالتوجه المتأثر بالدخيل :

نلتقي مع هذا التوجه بمنهج يختلف كل الاختلاف مع المنهج العربي، في طوريه البدائي والمتطور، سواء في طريقة العرض أو التبويب، ويتمثل هذا المنهج في كتاب "نقد الشعر" لقدامة(*) بن جعفر، فالمؤلف ينطلق من منطلقات تباين المنطلقات التي ألفناها مع ذوي الروح الإسلامية العربية ونستطيع أن نلخص هذا المنهج في الخطوات التالية:

(*) توفي أوبو عبيدة بن معمر حوالي 210هـ

أولا: عنوان الكتاب يوحي بإقتباسه لأنه غريب بالنسبة للعناوين المستنبطة من طبيعة الفكر العربي الجديد المتأثر بالقرآن. فأبو عبيدة(*) يُعَنْوِنُ كتابه "بمجاز القرآن" والفراء(*) بـ "معاني القرآن" وابن قتيبة بـ "تأويل مشكل القرآن" الى غير ذلك من العناوين المنتزعة من الفكر العربي المتطور، وقد أحسن الأستاذ عثمان بدري عندما تكلم عن العناوين فقال :" لم تبق عناوين الأعمال الفنية والأدبية - وحتى الفكرية والنقدية - مجرد أوعية خارجية تخضع لوظائف "تعليمية" أو "معلوماتية" مبنية على رؤية مفككة للمعرفة وللحياة والكون والإنسان، وإنما صارت تؤدي وظائف مهمة وأساسية في تفسير النص من الداخل، سواء كانت قصيدة شعرية أو مسرحية أو رواية أو قصة قصيرة أو سيرة ذاتية كما تؤدي وظائف مهمة وأساسية فيما يتصل بالمحيط الخارجي الذي ينتمي اليه هذا النص أو ذاك، سواء في المحيط الإجتماعي والسياسي والإقتصادي. والحضاري المحلي أو المحيط العالمي الوافد على هذا النحو أو ذاك(24)".

ولئن كان الأستاذ بدري اقتصر على الأدب الحديث، فإن الدارس للتراث العربي يكتشف أن عناوين المؤلفات الأصلية بمثابة الاستضاءات الكاشفة لمقاصد المؤلفين :" فأسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز" و"سر الفصاحة" و"مجمع البيان"، و"الكشاف"، و"مفتاح العلوم". كلها منارات لامعة وموحية لمضامينها.

ثانيا: تعريفه للشعر، فهو ينطلق من منطلقات لم نعهدها من قبل فهو يعرف الشعر بقوله:

"العلم بالشعر ينقسم أقساما، فقسم ينسب الى علم عروضه ووزنه، وقسم ينسب الى علم قوافيه ومقاطعة. وقسم ينسب الى علم غريبه ولغته، وقسم ينسب الى معانيه والمقصد منه، وقسم ينسب الى علم جيده ورديئه(25)".

هذه التقاسيم لايمكن أن تنشأ عفوية، بل هي مستمدة من معارف سابقة، وهي تمايز التعاريف العربية للشعر التي تنسجم مع الطبيعة العربية.

(*) توفي الفراء حوالي 207 ه
(*) توفي أبو العباس ثعلب حوالي 241هـ.

ثالثا: منهجيته في التأليف، فقد اتبع طيقة الفصول ، فأجمل كتابه في ثلاثة فصول، وبهذا المنهج يكون قد خالف المؤلفين العرب الذين نهجوا طريقة الأبواب كما هو الحال عند سبيويه في "الكتاب" والمبرد في "المقتصب" و"الكامل" أو الطبقات كما لاحظنا ذلك مع ابن سلام أو العناوين كما فعل ابن طباطبا.

وللأستاذ الدكتور الحاج الصالح رأى في الباب فهو يقول "فلفظة الباب تدل عند النحاة الأولين على المجموعة المطردة من الأحداث[26]" وهذا دليل على أصالة لفظة الباب في المنهج العربي القديم.

رابعا: الحدود المنطقية:

قدامة بن جعفر يستعمل المصطلحات المنطقية من حدود وجنس ونوع ومقدمات ونتائج فهو يقول :: إذا كان الشعر على ما قلناه لفظا موزونا مقفى يدل على معنى، وكان هذا الحد مأخوذا من جنس الشعر العام، وفصوله التي تحوزه عن غيره. كانت معاني هذا الجنس والفصول موجودة فيه كما يوجد في كل محدود معاني حده لأن الإنسان مثلا يحد بأنه حي ناطق ميت. فمعنى الحياة التي هي جنس للإنسان موجود في الإنسان، وهو التحرك والحس، وكذلك معنى النطق الذي فصله مما ليس بناطق موجود فيه، وهو التخيل والذكر والفكر، ومعنى الموت الذي في حد الإنسان- وهو قبول بطلان الحركة، فكذلك معنى اللفظ الذي هو جنس للشعر موجود فيه، وهو حروف خارجة بالصوت متواطئا عليها، وكذا معنى الوزن ومعنى التقفيه. ومعنى ما يدل عليه المعنى[27]".

إن هذا النَّفَسْ الجديد الذي يعتمد الحد والجنس والجزء والكل والوسط والمقدمات له مرجعيته اليونانية الواضحة التي تبناها بعض فلاسفة المسلمين من بعد وتأثروا بها وأثروا فيمن أتى بعدهم وطبعوها بطابعهم الخاص، وهذا المنهج سيستمر صراعه مع المنهج المعتدل وسيختفي المنهج العربي البدائي بل إن هذه التقاسيم والحدود والفصول والأجناس والأنواع ستتبوّء مكانها في فترة جمود الفكر العربي الخلاق في العصور الموسومة بعصور الانحطاط مجازا.

ومن هذا المنطلق ألحقنا كتاب "قواعد الشعر" لثعلب[*]، للتشابه الحاصر بينه وبين كتاب "نقد الشعر" لقدامة، فلفظة قاعدة شاذة في الفكر العربي. وهو يعرف الشعر بقوله :" قواعد الشعر أربع: أمر ونهي وخبر واستخبار[28]".

وهذا الكلام لا يخص الشعر، وإنما يتناول النثر أيضا، وهو تعريف طارئ على الدراسات العربية، وقد لاحظنا رفضه من لدن ابن قتيبة الذي نسبه الى المناطقة عند تقسيمهم الكلام الى أربعة (أمر، وخبر، واستخبار، ورغبة، ثلاثة لايدخلها الصدق والكذب، وهي الأمر والاستخبار، والرغبة، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر".

وعلى أساس هذا التوجه ألحقناه بالتوجه المتطرف الوافد على المناهج العربية في التأليف.

وخلاصة هذا البحث أنه مستنبط من رؤية ذاتية، وتجربة ممارسة في الميدان، بعيدة كل البعد عن آراء الآخرين، فقد صدرتُ عن الأصول نفسها، معتمدا في ذلك على النص ذاته، لذا فإن أصبت فبتصويب من الله الذي فتح بصيرتي الى الصواب، وإن حِدتُ عن جادة الصواب، فمن نفسي التواقة الى الإعجاب.

أدعو الله أن يعصمني من الهوى وحب الذات، إنه سميع مجيب الدعوات.

الجزائر 22 ذي القعدة 1413 هـ الموافق لـ 14 مايو 1993م

(*) توفى أبو الحسن محمد بن الحسن المعروف بابن طباطبا العلوي سنة 322هـ

مصادر البحث

1) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء، ص : 24، ج1 مطبعة المدني – القاهرة.

2) ابن سلام الجمعي : نفس المرجع والصفحة.

3) الخطابي: بيان اعجاز القرآن، ص: 25 رسالة مطبوعة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن دار المعارف.

4) ابن جني: الخصائص، ص: 273، ج3 دار الكتب المصرية 1376هـ 1956م.

5) الخطابي : بيان اعجاز القرآن، ص : 37.

6) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء، ص : 25، ج1

7) ابن خلدون: المقدمة، ص : 1093 دار الكتاب اللبناني بيروت 1960م.

8) سورة الروم : الآية 09.

9) ابن سلام الجمحي : ص :24، ج1

10) ابن سلام الجمحي : ص: 04، ج1

11) سورة الأعراف : الأية 159

12) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ص: 62 ومايليها تحقيق أحمد محمد شاكر دار المعرف 1966م.

13) ابن قتيبة: أدب الكتاب ص :3 وما بعدها تحقيق محمد محي الدين مطبعة السعادة بمصر 1382ه 1963م

14) ابن قتيبة : الشعر والشعراء، ص : 62، ج1

15) سورة الرحمن : الآيات 1، 2، 3، 4.

16) سورة الأحقاف : الآية 09.

17) صورة المائدة : الآية 03.

18) ابن المعتز: البديع، ص 1 : نشر وتعليق اغناطوس كراتشكوفسكي مطبعة المسيرة 1402هـ 1982م.

19) ابن المعتز : نفس المصدر، ص: 58.

20) ابن المعتز: نفس المصدر ، ص: 59.

21) ابن طباطبا: عيار الشعر، ص: 16 تحقيق الدكتور طه الحاجري ومحمد سلام زغلول - المكتبة التجارية الكبرى القاهرة 1956م

22) نفس المرجع، ص: 14.

23) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، ص: 13، مكتبة الخانجي 1963 بمصر ص:20.

24) الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: مدخل الى علم اللسان - مجلة اللسانيات العدد الأول 1971.

25) بدري عثمان : وظيفة العناوين : مقال في مجلة معهد اللغة والأدب العربي، ص: 81 وما بعدها سنة 1992 العدد 1

26) قدامة بن جعفر: نقد الشعر : ص:22.

28) أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب : قواعد الشعر، ص: 35 تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب القاهرة 1966 دار المعرفة.